حصاد 2021

الجزائر الثقافية سنة للمقترحات والنصوص القانونية

لا أضواء في الأفق

أمام كثرة المقترحات والنصوص القانونية التي تهدف إلى تنظيم المشهد الثقافي، تواصل للسنة الثانية شحُّ الإنتاج الثقافي في مجالات المسرح والسينما والكتاب، والتي يبدو الفاعلون فيها الأكثر تأثُّراً بجائحة تدخل سنتها الثالثة دون ضوء في الأفق

الجزائر ـ **محمد علاوة حاجي**

يُمكن القول إنّ أبرز ما حدث في 2021، على الصعيد الثقافي الجزائري، هو ما لم يحدث أساساً باستثناء «المهرجان الوطني للمسرح المحترف»، الذي نظّمت دورته الرابعة عشرة في أدار/ مارس الماضي بعد سنتَين من الانقطاع، واصل عددٌ غيرُ قليل من التظاهرات الثقافية غيابه للسنة الثالثة على التوالي؛ وأبرزُها «المعرض الدولي للكتاب»، و«المهرجان الدولي للمسرح المحترف»، و«مهرجان وهران للفيلم العربي»، و«مهرجان عنّابة للفيلم المتوسّطي»، و«المهرجان الدولي للفيلم الملتزم».

جميعُ تلك التظاهرات تُقام بإشراف ودعم من وزارة الثقافة. أمّا استمرارُ غيابها فسنبّه المفترض هو الوضع الوبائي الذي لا يتحسّن إلّا ليتدهور مرّةً أخرى، وإنْ كانَ القائمون على معظمها لم يُعلنوا عن تأجيلها، مثلما هو الحال بالنسبة إلى مهرجاني وهران وعنّابة اللذين توقّف الحديثُ عنهما منذ 2018.

في مقابل ذلك، لم تخلُ مفكّرة وزارة الثقافة من الفعاليات الصغيرة التي استمرّ تنظيمُها طيلة أشهر السنة؛ ومِن ذلك ما سمّته «افتتاح الموسم الثقافي 2021/ 2022» في تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي، والذي شهد حضوراً رسمياً كبيراً، واستمرّ لأيّام أُقيمت خلالها عروض مسرحية وموسيقية ومعارض فنّية، لكنْ من دون أنْ تُعرَف طبيعة ومضامينُ هذا «الموسم الثقافي» من الأساس.

بعيداً عن تظاهُرات وزارة الثقافة التي تُهيمن على المشهد، جرى أيضاً، هذا العام، تأجيل الدورة السابعة من تظاهُرة «الحيّ فنّاً» التي تُقام في ولاية تيزي وزّو، وهي واحدةٌ من التظاهرات الثقافية المستقلّة القليلة في الجزائر (تأسّست عام 2004).

وقبل ذلك، نظّمت الوزارة في نيسان/ أبريل ما أطلقت عليه «المنتدى الثقافي الاقتصادي الأوّل»، بمشاركة مَن وُصفوا بالخبراء في مجالَي الثقافة والاقتصاد، وقالت إنه يهدف إلى «بحث آليات تمويل الاستثمارات الثقافية، بغية إشراك الثقافة في التنمية المحلّية»، بعد ثلاثة أيّام تحدّث المشاركون فيها عمّا ينبغي تحقيقه للقطاع، أعلنت وزيرة الثقافة السابقة، مليكة بن دودة، في ختام المنتدى عن مجموعة من القرارات؛ من بينها إنشاء مدينة سينمائية في مدينة تيميمون، ومركّبَين سينمائيَين في الجزائر العاصمة ووهران، ومدرسة للسينما في قسنطينة، وأكاديمية في تيزي وزّو، ومنصّة إلكترونية سينمائية، وأخرى للفنّ التشكيلي. باستثناء إطلاق منصّة للفنّ التشكيلي نهاية الشهر نفسه باسم «الوحتي»، لم يجرِ تنفيذ بقية القرارات إلى الآن، ولا يُعلَم إنْ كانت ستجدّ طريقاً إلى التطبيق، أم ستظلّ حبراً على ورق مثل كثير من سابقاتها. على أنّ بعضهم يُبدي تفاؤلاً مع صدور مرسوم رئاسي في تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي بإنشاء مركز «وطني للصناعة السينماتوغرافية» يتبع مباشرة الوزارة الأولى (رئاسة الوزراء)، ويتولّى تسيير المجال السينمائي، وإنشاء «المدن السينمائية»، يبدو المركز بديلاً لـ«كتابة الدولة للصناعة السينماتوغرافية والإنتاج الثقافي»، وهي هيئة استُحدثت خلال تعديل حكومي في كانون الثاني/ يناير 2020، وعُيّن على رأسها الممثّل يوسف سحيري، وقيل حينها إنها تعكس اهتمام الدولة بالصناعة السينمائية. لكن جرى إلغاؤها في تعديل حكومي آخر مطلع السنة الحالية.

في مجال السينما دائماً، عاد هذا العام الحديث عن مشروع الفيلم السينمائي عن سيرة «مؤسّس الدولة الجزائرية الحديثة»، الأمير عبد القادر بن محيي الدين (1808 - 1883)، مع حديث الرئيس الجزائري عبد المجيد تبّون، في آب/ أغسطس، عن ضرورة إعادة إطلاق المشروع الذي بدأ عام 2007 وصُرفت ثلاثة أرباع ميزانيته المقدّرة بعشرين مليار سنتيم جزائري من دون أن يُصوّر منه مشهدٌ واحد. وفي تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي، وقّع تبّون مرسوماً رئاسياً لإنشاء مؤسّسة تتكفّل بإنتاج الفيلم، بدءاً من إعداد السيناريو الخاصّ به، ووصولاً بالاختلالات المعروفة في المسرح، واجترحت تسميات جديدة لما ينبغي أن تكون عليه أنماط الممارسة المسرحية؛ مثل «مسرح المدينة» و«مسرح المبادرة» و«مسرح الغد».

> مقترحات ومشاريع قوانين لم تجد طريقاً إلى التنفيذ
>
> إنتاجٌ ثقافي شحيح في مجالات المسرح والسينما والكتاب

لا تحمل تلك المقترحات طابعاً إلزامياً، ولا يُعرف أيضاً إنْ كانت الوزارة ستأخذ بها في أيّ تصوُّرات مستقبلية قد تُعدّها عن المسرح الجزائري، خصوصاً مع مغادرة مليكة بن دودة وزارة الثقافة خلال تعديل حكومي أُجري في تمّوز/ يوليو الماضي، لتحلّ مكانها وفاء شعلال التي تبدو منشغلةً بترتيب البيت الداخلي للوزارة.

وعلى خلاف ورشة المسرح، لم تُقدَّم «لجنة إصلاح الكتاب» التي أُطلقت العام الماضي أيضاً، مقترحاتها بخصوص مجال النشر؛ مثل تنظيم معارض الكتاب وعمل دور النشر الحكومية و«المركز الوطني للكتاب» و«المكتبة الوطنية الجزائرية»، في حين قدّمت بن دودة، خلال اجتماع للحكومة الجزائرية في أيار/ مايو الماضي، أربعة مشاريع مراسيم تنفيذية تتعلّق بسوق الكتاب، يهدف الأوّل إلى وضع إطار تنظيمي لاقتناء الكتب من قبل الهيئات والمؤسّسات الرسمية، ويُحدّد الثاني كيفيات دعم الدولة إيصال الكتب إلى المناطق البعيدة عن العاصمة، ضمن مبدأ «السعر الموحّد للكتاب» في كلّ مناطق البلاد، ويُحدّد الثالث كيفيات منح الترخيص المسبق لتنظيم التظاهُرات المتعلّقة بالكتاب الموجّه إلى الجمهور، في حين يُحدّد الرابع شروط وكيفيات منح علامة الجودة لدور نشر الكتاب ومكتبات بيع الكتب وكيفية سحبها. واللافت في تلك النصوص، التي ظلّ مجرّد مشاريع قوانين لم ترَ النور بعد، هو تجاهُلها عدم وصول الكتاب الذي يصدر خارج الجزائر، غربياً كان أم أجنبياً، إلى البلاد، إلّا خلال «المعرض الدولي للكتاب».

وأمام كثرة المقترحات والنصوص القانونية التي تهدف إلى تنظيم المشهد الثقافي، يتواصل للسنة الثانية شحُّ الإنتاج الثقافي في مجالات المسرح والسينما والكتاب، والتي يبدو الفاعلون فيها الأكثر تأثُّراً بجائحة تدخل سنتها الثالثة دون ضوء في الأفق.

من «ساحة الأمير عبد القادر» في الجزائر العاصمة، 2021 (Getty)

الأمنية السنوية

إحدى العبارات التي تتكرّر بشكل لافت في الخطاب الرسمي الجزائري خلال السنوات الأخيرة هي: «تحويل الثقافة إلى مصدر للثروة الاقتصادية». استمرّت هذه النغمةُ حتّى مع فترة الوباء الذي تسبّب بخسائر فادحة للمشتغلين في القطاع، لكن عدا فرض مقابل مالي على حضور الفعاليات الثقافية التي كانت مجّانية إلى وقت قريب، لم تكشف وزارة الثقافة عن أيّة دراسات أو خطوات لتحقيق ما يبدو أنه مجرّد أمنية تتكرّر كلّ عام.

إطلالة

في غياب الاختلاف بين الآباء والبَنين

هدنة الأجيال

يبدو أن مسألة الجيل، والاختلاف بين الأجيال، غير متوفّرة عربياً؛ إذ ليس لدى أيّ جيل عربي ما يعتدّ به من الفكر والمبادئ المستقلّة والخاصّة

ممدوح عزام

يقول المثل الشعبي ما معناه إنّ كلّ جيل يطرب لجيله، وهذا صحيح عموماً، وقد يظهر هذا الطرب في صورة رفْض أو صراع مع الجيل الآخر، وفي الغالب، فإن الأبناء يخوضون صراعاً ما مع الآباء. وفي كلّ استعادة لمفهوم صراع الأجيال تأتي رواية تورغينيف «الآباء والبنون» مثالاً أدبيّاً على تجسيد الوضع بين جيل وجيل، وفيها يلخّص الروائي أحد أشكال المواجهة بين جيلين من أجيال الروس الذين عاصروه. غير أننا، هنا في هذه الرواية، نقرأ حالة مجتمع آخر ووضع آخر ومفاهيم أخرى لا صلة بين المفاهيم التي تطرحها على نفسها وعلى الأجيال الروسية، وبين وضع الأجيال العربية. وإذا ما نشأ الصراع الجيلي هنا، فإن طبيعة المجتمع تضع أمام الجميع معطيات أخرى لا تُقارب أشكال الصراع التي جسّدها تورغينيف.

ويمكن اعتبار الاعتراضات السُّلوكية التي يُبديها الأبناء تجاه آبائهم شكلاً شفوياً من أشكال صراع الأجيال، وقلّما تخلو أسرة من مواجهات مماثلة، غير أن مسألة الجيل ـ بوصفه وحدةً اجتماعية مضادّة لوحدة اجتماعية أخرى. غير متوفّرة، وليس لدى أيّ جيل عربي ما يعتدّ به من الفكر والمبادئ المستقلّة التي يستطيع أن يضعها كبرنامج عمل لنفسه في أيّة مرحلة من مراحل تاريخنا المعاصر. وفي الغالب، فقد سرق السياسيّون تلك البرامج، أو جمّدوها لصالح مشاريع «كبرى» وهميّة ومزيّفة وُضعت بوصفها الحلم الكبير الذي يجب أن تُمحى كلّ المشاريع والأفكار والأحلام لدى طبقات المجتمع أو شرائحه العمرية، من أجل تحقيقه.

ومنذ النصف الثاني من القرن العشرين (أي منذ ظهور العسكر واستلامهم الحُكم)، شهد العالم العربي ما يشبه الهدنة في وضع الأجيال؛ إذ يبدو أن أنظمة الحكم وحّدت شرائح المجتمع في مواجهتها، أو أجلت المواجهات بين الأجيال. وفي المجال الأدبي والفنّي، كان الشعر العربي هو الذي حمل الرايةَ وحيداً، وهو النوع الأدبي الذي خاض منذ بداية القرن اشكالاً مختلفة من صراع الأجيال، وشهد أعنف صراع جيلي في الأدب العربي. واستطاع الشعر الحديث أن يحقّق انتصارات فنّية كبرى، وأن يُرغم الشعر العموديّ وممثّليه على التراجع أو الصمت أو التخلّي عن أدوات الصراع.

بينما لم تظهر في الرواية العربية أو القصّة القصيرة أو المسرح العربي، أيّة مؤشرات تدلّ على احتمال نشوب معارك في الخيارات الفنية. فلم تشهد الرواية أيّ تمرّد، إذ لا يوجد ما تتمرّد عليه في النوع؛ ولم تتعرّض القصّة القصيرة لأيّ شكل من أشكال التحدّي، بينما كانت معركة المسرح، ولا تزال، مع قوى الرقابة والحظر.

وفي الثورات العربية التي شهدتها السنوات العشر الماضية، لم يظهر أيّ شكل من أشكال الصراع بين الأجيال على الأرض، إذ شملت الثورات جميع شرائح المجتمعات العربية العمريّة. اللافت أن تُشارك في الثورات المضادّة عناصرُ عمريّة مماثلة لتلك التي شاركت في صناعتها. أي أنّ من بين الموالين للأنظمة، أو مَن شاركوا في دحض الثورات، أو ساهموا في صناعة الائتلافات المدنية والعسكرية المضادّة للثورة، كان شبابٌ وكهولٌ ومتقدّمون في السنّ.

> في أدب القرن الماضي عربياً، وحده الشعر عرف صراع أجيال

(روائي من سورية)

«حاملا الأرضي شوكي» للفنان السوداني صلاح الفزّ. أكريليك على قماش، 2017

تونس

حرص مبالغ به على احترام الروزنامة

لا شيء يبقى عند نهاية العام

صحيحٌ أن هناك جديداً من كتب وأفلام ومسرحيات وعروض موسيقية تحمل تصوّرات، لكن أي وقع لكل ذلك، وما الذي يبقى في ذهن المتابع بعد نهاية العام؟

شوقي بن حسن

بعد عام ونصف من التأجيلات، بسبب الجائحة وموجاتها المتتالية، بدا أن شعار الثقافة في النصف الثاني من 2021 في تونس هو الحرص على تنظيم التظاهرات بأيّ ثمن، وكأنّ الأمر يتعلّق بعدم احتمال مزيد من احتجاجات المثقّفين على توقّف الأنشطة الإبداعية. لكنّ النتيجة بدت باهتة، حتى أنها أعادت سؤال جدوى تنظيم الكثير من التظاهرات: هل من أجل تقديم مادّة ثقافية جدّية وتوفير فضاء لتفاعل الناشطين في قطاع ما، أم أن الأمر أقرب إلى تقليد مُفرغ من كلّ معنى، ما عدا تدوير بعض المنافع المادّية كوسيلة إنعاش للحياة الثقافية؟

يتجلّى ذلك في قطاع الكتاب، حيث انتظم معرضان عنوانهما تحدّي العودة لتنظيم المعارض بعد قوس عام ونصف من الإغلاق؛ الأوّل أقيم في حزيران/ يونيو (المعرض الوطني)، والثاني في تشرين الثاني/ نوفمبر (المعرض الدولي)، وكان قاسمهما المشترك انتقادات الجمهور والناشرين على التنظيم الاعتباطي، بداية من الموعد الذي جرى اختياره لكلّ واحد منهما وصولاً إلى الدعاية، حتى أن الأمر بدا لكثيرين وكأن هناك تنفيراً مقصوداً. ولولا جهود المؤلّفين ودور النشر في ترتيب بعض اللقاءات بالقرّاء والتعريف بالإنتاجات الجديدة لقلنا إن شيئاً لم يحدث في 2021.

يعكس المعرضان الواقع نفسه: واقع النشر؛ حيث تنخره آفات كثيرة تجعله غير قادر على التعبير عن مشهد تبدو طاقات مبدعيه مهدرة في حسابات دور النشر، كشبهات التلاعب بالمال العام دون أن تجد إرادة حقيقية في فتح ملفّات كثيرة، وطبع الأعمال ضمن منظور مناسباتي ضيّق (قبيل كلّ معرض تحديداً)، حتى أننا لو حاولنا رصد إصدارات العام سنجد أن معظمها قد طُبع خلال أسبوعين أو ثلاثة.

> في كلّ القطاعات، هناك صمت طوال العام ثمّ لهفة إنتاجية بمناسبة ما

يُشبه هذا الانحسار الزمني جميع وجوه الثقافة في 2021: صمتٌ طوال العام ثمّ لهفة إنتاجية تدور حول مناسبة ما وبعد ذلك يهدأ كلّ شيء. بين شهري تشرين الأوّل/ أكتوبر وكانون الأوّل/ ديسمبر، جاءت، متلاحقة، «أيام قرطاج» السينمائية فالمسرحية فالموسيقية. لم يكن للجمهور الوقت ليسترِدّ أنفاسه حتى يبدأ مهرجان جديد، لكنْ ما الجديد حقّاً من وراء ذلك؟

صحيحٌ، توجد أفلام جديدة ومسرحيات وعروض موسيقية تحمل تصوّرات، لكن أيّ وقع لكلّ ذلك؟ ما الذي يبقى في ذهن المتفرّج بعد فترة قصيرة؟ هكذا، ينبغي ألّا نغترّ بكثرة الأنشطة الثقافية خلال الشهور الأخيرة من العام في تونس؛ لا ينفع ذلك إلّا في الإحصائيات الإدارية التي تشير إلى صدور ألف كتاب في العام وعرض أكثر من مئتي مسرحية وتنظيم عدد أكبر من المعارض التشكيلية. تُنتج الحياة الثقافية التونسية ذلك فعلاً، لكن وكأنها لم تُنتج إلّا القليل.

في نهاية العام، لا يسعنا إلّا أن نتوقّف قليلاً أمام هذا الحرص على تنظيم التظاهرات الثقافية في مواعيدها، وإنفاق المال العام عليها بسخاء، وأن نتساءل، ولا نملك غير ذلك: لماذا لا يحبّ أحد أن يعرف، كم قُرئ من كتاب، وكم عدد الحضور في ذلك المعرض أو تلك المحاضرة؟

من عرض «أيام قرطاج المسرحية»، 5 كانون الأول/ ديسمبر 2021 (Getty)

إضاءات

مطلع حزيران/ يونيو، توقّفت مسيرة المفكّر والمؤرّخ التونسي **هشام جعيّط** الذي رحل عن 86 عاماً (1935 ـ 2021). ترك صاحب **أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة** واحداً من أكثر المشاريع الفكرية المعاصرة ثراءً؛ مشروعٌ زاوج فيه بين الاهتمام بالتاريخ الإسلامي وممارسة النقد الحضاري لواقعنا.

في محاولة لإنعاش سوق النشر، أقامت «المنظّمة الوطنية لناشري الكتب» في آذار/ مارس الدورة الأولى من **صالون الجزائر للكتاب** بمشاركة 200 ناشر جزائري. شهدت التظاهُرة إقبالاً محتشماً بالمقارنة مع «معرض الجزائر الدولي للكتاب» الذي كان يستقطب قرابة مئة ألف زائر يومياً، وانعكس ذلك على انخفاض المبيعات، رغم أنّ التخفيضات بلغت 50 بالمئة لدى بعض الناشرين.

عن 84 عاماً، رحل، في تشرين الأوّل/ أكتوبر، الباحث التونسي **عبد الباقي الهرماسي** (1937 - 2021)، الذي غطّت تجربته كوزير (للثقافة والخارجية) على مسيرته العلمية، وهو الذي يُعدّ من مؤسّسي علم الاجتماع في تونس. من أعماله: **الدولة والمجتمع في المغرب العربي**، و**نظرة جديدة على العالم الثالث**.

في كانون الثاني/ يناير، رحل الروائي **مرزاق بقطاش** (1945 - 2021)؛ أحدُ أبرز كتّاب جيل السبعينيات في الجزائر. بدا بقطاش صحافياً باللغتين العربية والفرنسية، وألّف قرابة خمسة عشر عملاً بين القصة والرواية والترجمة، أوّلها روايتُه **طيور في الظهيرة** (197) وآخرها **المطر يكتب سيرته** (2017).